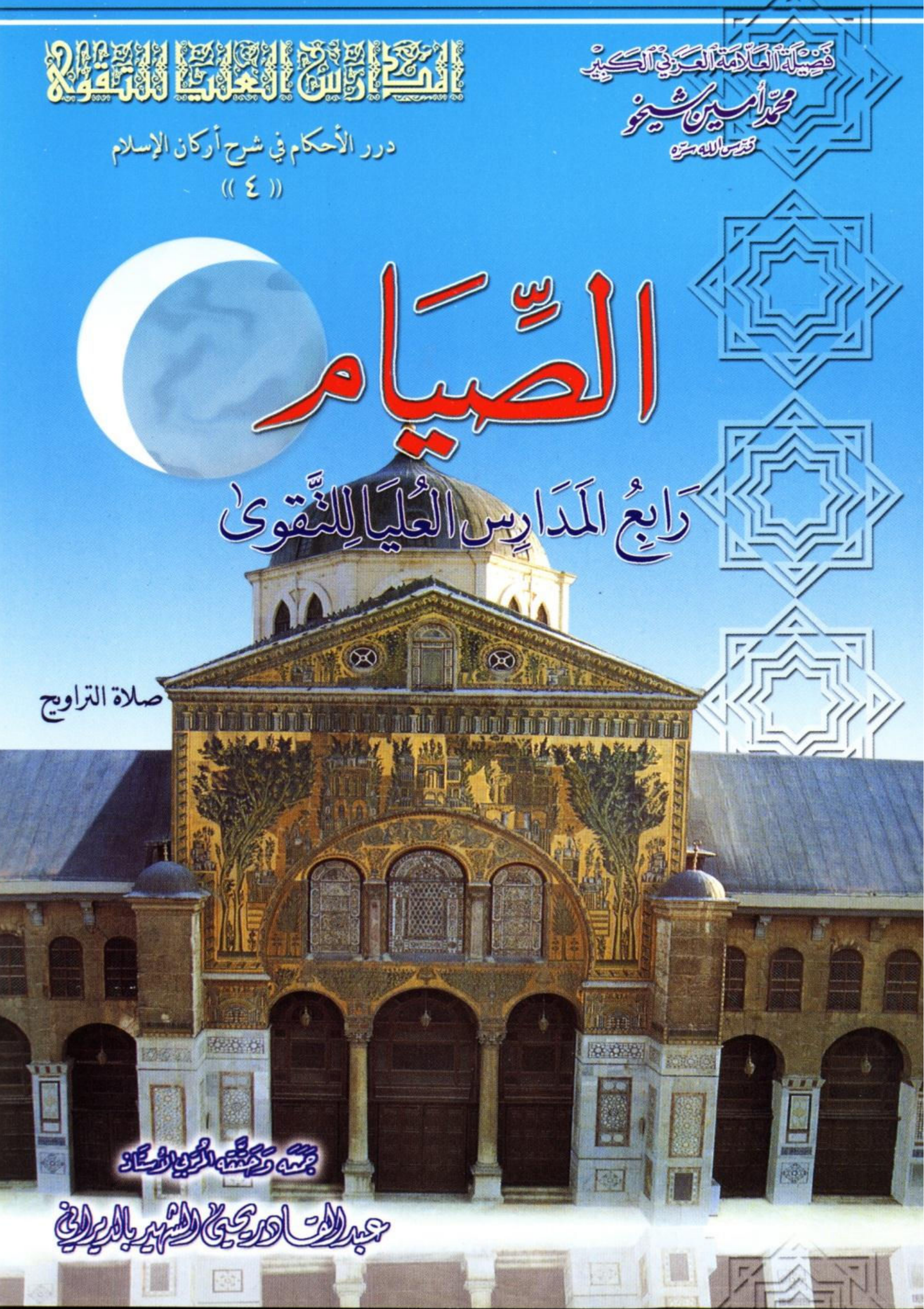


فضيلة العلامة العرزني الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره
المدارس العليا للتقوى
درر الأحكام في شرح أركان الإسلام
((٤))
الصيام
رابع المدارس العليا للتقوى
صلاة التراويح
جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



المدارس العليا للتقوى

درر الأحكام في شرح أركان الإسلام

(٤)

الصيام

رابع المدارس العليا للتقوى

جمعه وحققه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

ابن محدث دمشق المرحوم الشيخ محمد الديراني

فهرس

الصيـــــــام

رابع المدارس العليا للتقوى



مُقَدِّمَة

حقيقة الصيام وحكمته

يا إنسان؛ لقد منحك تعالى أهلية لترقى وتسمو لأعلى كمال، ففكِّر لتبلغ هذا المقام العظيم الذي رُشحت له.

نعم منحك آلة تامة، جوهرة غالية؛ إن استفدت بها تغدو بصيراً، فلا تستهوي نفسك بعدها هذه الدنيا الدنية وما فيها من مفاسد وما يعقبها من خزي وعار، إذ ترى حقيقتها. إن فكَّر الإنسان ببدايته فرأى نفسه لا شيء، نظر في تربيته وتربية ما حوله من الكون رأى عظمة ربه، نظر في نهايته فعرف أنه راحل، وما هذه الدنيا بدار مقام، عندها يصدق بطلب الحق، إن صدق المرء بطلب الحق عندها يعطيه الله.

إن بلوغك هذا السمو والعلو ليس بصعب أبداً.. انتسب إلى مدرسة الطهارة بصدق واسلك هذه الدلالة بإرادة صادقة، عندها تستهون هذه الرؤية للحقائق، إذ تحظى بها فتسلك قمم المعرفة العليا وترتقي لأفلاك المعالي وميامين الكمال وترفل بوشاحات الأنس. أما إذا شردت نفسك بأهوائها الصبيانية فصبوت لهذه وتلك من متاع الدنيا الزائل وعرَضها الفاني بأن

أعرضت عن الوصول للسمو بهذه الأصول فإنك لا تهوى إلاَّ الرذيلة.

ألا أيها الناس إن أعمالكم التي تعملونها ستنطبق عليكم غداً بالحق. الذين أهملوا التفكير فما ساروا بالحق أعمالهم الآن منحطة، لكن إعراضهم عن مبدع السموات سيهوي بهم إلى وديان تعاسةٍ أدنى انحطاطاً، فهم ساعون إليها يهرعون مثابرين على هذا الحال المريع حتى الساعة، عندها تشخص أبصارهم ذعراً وإلى الأبد.

السبب في انهيار الإنسانية إلى هذا الدرك الذي نلمسه بكافة الأوساط البشرية والمصائب والمصاعب والمجاعات والزلازل والأمراض أن البشر كانوا مستكبرين بما عندهم من علم وشأن دنيوي.. لا سيما في مجال الاختراع والإبداع الدنيوي؛ يتسامرون باللهو واللعب والفسق ويهجرون الحق.

أفلم يروا ما في هذا البيان العالي الرفيع والدلالة المنطقية التي تزخر بالحق والكمال من منطق حق!.

هل هذا غريب، أين وجه الغرابة، أما أرسل تعالى لكافة الأمم رسلاً!. أما قارنوا أعمالهم بأعماله، أما علموا كماله.. غداً كلُّ امرئ يقول: "نفسي.. نفسي".

والآن الصوم لا يتحقَّق لامرئ ما لم تكن أعماله كلها ودون استثناء إحساناً. الحقيقة أن النفس حرَّة بإرادتها واختيارها؛ منحها تعالى الإطلاق والحرية، فأنت لا تستطيع إجبار نفسك كرهاً، بل بالحجة والبرهان المنطقي..

فإن أقنعتها سارت معك ووافقتكَ، إن أحسنتَ وأصلحتَ عندها تُقبل نفسك على الله تعالى منبع الخيرات كلها وموئل الفضائل فتتشرَّب نفسك الكمالات؛ أما إن أفسدتَ صومك بمخالفةٍ فلن تستطيع الإقبال، إذ حلَّ بساحتها الخجل وفقدت الثقة.

والآن كثير منا يصوم صورةً عن الطعام والشراب ولا يصلِّي، يحجُّ ويشتغل بالربا، يؤمن بما يناسب هواه ويكفر بما يُعارض شهواته. مثال لذلك: الأندلس دولة عظيمة، لكنها زالت، إذ كانوا يستعينون بالأجانب على بعضهم البعض، كذلك اليهود أهل الكتاب كانوا يستعينون بالعرب الوثنيين على بعضهم بعضاً.

أما المؤمن فيؤمن بالكل، فلا يطبِّق واحدة تناسب هواه ويترك الأخرى لأنها لا تتناسب وشهواته، أي يجاهد النفس والهوى.. فمن يفعل ذلك، أي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضٍ يحصل له ما حصل لهم.. عرف الحق وما سار به، ولكن المصير المرعب حينما يذهب للآخرة فلا يجد له عملاً صالحاً يصلح للإقبال على الله وخالصاً من الغايات بأعراض أو أموال الناس فيحترق حزناً، إذ تستيقظ فطرة الكمال فيه وقد زالت الشهوات والأهواء فلا يجد دواءً لحريق نفسه ولا تسكيناً لها إلاَّ بالنار وبئس العلاج وساءت مرتفقاً. أما إن أقبلت النفس على الله واثقة من عملها الطَّيب النزيه عن الغايات المنحطة

اشتقت نفسك الكمال وازدانت به فأحبَّت أهل الكمال وصاحبتهم مقدِّرة كمالهم السامي، عندها تدخل معهم على الله تعالى وتنساح في بحور الجلال والجمال الإلّهي.. بذا تكون قد توسَّعت ونمت بالحب الإلّهي الصافي الشريف فتجردت عن الدنايا والأغراض النفسية، فلا تطمح لمردودٍ لإحسانها من المخلوقات، بل من بارئها خالق الخيرات، عندها تستنير بنوره تعالى وترى الخير من الشر ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

وهذه ثمرة الصوم كما بالحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**». فبه نوال ليلة القدر، إذ به بعدها تُعرض نفس الصائم عن المنكرات وتكرهها لمشاهدتها ما فيها من شرور بالنور الإلّهي الذي اشتقته بهذه الليلة المباركة، ويحظى الصائم حقّاً بتُحف المكرمات وهذا الباب مفتوحٌ لكلِّ مؤمن.. فاحذر عندها من الانقطاع عن الله، تعالى فتكون صلاتك كاملة صحيحة.

إذ أن المؤمن بإيمانه وصيامه يُحفظ من الوقوع ويكتسب ثقةً فيُقبل على الله تعالى ويصلِّي الصلاة التي يحصل بها على الطهارة القلبية من حضرة الله تعالى فتطهر النفس من كافة الشوائب ويغدو الصائم طاهراً نقيّاً كيوم ولدته أمه، عندها ينطلق للإصلاح وفعل المعروف وعمل الإحسان، إذ غدا إنساناً

[1] سورة الفجر: الآية (٢٩-٣٠).

بحقيقة ما تحويه الإنسانية من معنى سامٍ، فقد استأنس بالله منبع كل خير ونال الخير فأفاضه على الناس دون أجر ولا غاية، عندها يستأنس الخلْق به، لذا خُلقنا لنكون إنساناً فنَسعَد ونُسعِد وتغدو الجنة في الأرض ويحلُّ في ربوعها السلامُ والمحبة الشريفة الإنسانية والعيش الرغيد الهنيء.

وهذا مراد أرحم الراحمين رب العالمين، فهو ليس ربُّ أمة دون أمة، وليس ربنا فقط، بل ربُّ العالمين قاطبةً يبغي السعادة للعالمين كافة.. سعادة دنيوية فأُخروية سرمدية.. سعادة كبرى يحظى بها وينشرها الصائم المؤمن.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الصيـــــــــــــام

رابع المدارس العليا للتقوى

إن مدرسة الصيام هي المدرسة العليا التي جعلها الله سبحانه وتعالى مدرسة لنيل التقوى.. ولهذا أمر عباده بالصوم ليفوزوا بتلك الشهادة العالية وليحظوا بذلك النور الإلٓهي الذي يكون فرقاناً يريهم الخير خيراً والشر شراً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

ففي الصوم تصفو النفس من كدوراتها وتزهد في الدنيا وزينتها وتنقطع الصلة بين النفس وشيطانها فإذا جاء يوسوس لها وعرض عليها زخرف الدنيا وشهواتها أعرضت عنه غير عابئة به فالجوع والعطش شغلا ساحتها فصارت تعاف كل شيء وتنصرف عن كل شيء وبهذا تتوحد وجهتها ويسهل انقيادها إلى خالقها وتوجيهها إلى بارئها.

فإذا رجعت إلى ذاتها وعرفت أنها أرضت الله بصومها وطاعتها وتقرَّبت إليه بعملها وجهادها. إذا عرفت ذلك أغذت السير إلى الله وأقبلت عليه في صلاة التراويح والنفس لا تقبل على أحد إلاَّ إذا أيقنت بأنها محسنة غير

[١] سورة البقرة: الآية (١٨٣).

مسيئة وصادقة معه ومخلصة وهذا قانون ثابت ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. فإذا استمرت النفس على صلتها بربها ودامت على صلاتها وظلت عاكفة في حضرة بارئها مقبلة على خالقها كان لها في ذلك حياة وانتعاش وروح وريحان وزلفى وقرب من الرحيم الرحمن صاحب الجود والإحسان وبهذا تتسامى وتسمو وقد لا تحصل على ذلك في غير رمضان وتتفتَّح منها البصائر وتنكشف لها الحقائق والصوم لها على ذلك خير معوان.

هذا وقد عرَّفنا الرسول الكريم بمشروعية الصوم مبيناً سبب الأمر الإلٓهي به وذلك في حديث من الأحاديث القدسية التي بيَّنها ﷺ عن لسان حضرة الله جل جلاله، إذ يقول: «**كُل عمل ابن آدَم له إلاَّ الصيامَ، فإنه لي وأنا أجزي به..**»[1]، وفي كلمة (**إلاَّ الصيام فإنه لي**) بيان للثمرة من الصوم والغاية السامية منه. وإذا كان الوضوء يهبك حيوية ونشاطاً ويجعلك أهلاً لأن تقف بين يدي الله في الصلاة وإذا كانت الغاية من الصلوات الخمس إيراد نفسك مورد الكمال ووقوفك بين يدي الله للتعرُّف إلى القانون الذي أنزله ربك والذي يجب أن نسير عليه لنكون من السعداء.

ففي الصوم تصل إلى غاية الغايات، وفي الصوم تصل النفس المؤمنة بصلاة التراويح إلى أسمى منازل الإنسان إذ تصاحب إمام الرسل وترافق سيد

[1] صحيح البخاري ٤/٨٨.

الكائنات، ثم تدخل برفقته ومعيَّته على الله فتشاهد ما تشاهد من جلال الحضرة الإلَهية وترى ما ترى من كمالها. وهكذا فبالصوم تصل النفس إلى المحبوب لديها أكثر من كل شيء. إنها تصل إلى أصل الوجود ومصدر الكون فتشاهد الأسماء الإلَهية الحسنى وترى ما ترى من آيات ربها الكبرى. وفي الحديث القدسي الشريف: «**ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء**»[1].

تلك هي الثمرة من الصوم وذلك ما نفهمه من حديث: «**إلاَّ الصيام فإنه لي**» فغايته تعالى من أمره إياك بالصوم أن يوصلك إلى جنابه العالي الرفيع ويذيقك من رحمته ويشهدك طرفاً من جلاله وجماله وينير قلبك بقبس من نوره تمشي به في حياتك فلا تضل أبداً وهنالك تكسب هذه الحياة الثمينة فلا تعود تقع في مكروه ولا تقصّر في عمل من أعمال الخير حتى إذا انتهت بك مرحلة العمر وانقطعت الحياة دخلت في النعيم المقيم وآويت إلى كنف ربك الرحيم. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

---

[1] الزبور، إحياء علوم الدين: الجزء الرابع، ص٤٦٩ بلفظ: «**من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني فقال أبو الدرداء: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا**».

[2] سورة العنكبوت: الآية (٦٩).

ونتكلم الآن عن ثمرة الصوم وما يعود به من الخير على هذا الإنسان..

وخاصة إذا حصلت للصائم في رمضان ليلة القدر. فما هي هذه الليلة؟. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

القدر: هو مبلغ الشيء، والقدر: هو الحال والشأن، يقال قدَّر فلان هذا الأمر، أي عرف حاله وشأنه. وقدَّر الإنسان خالقه أي: عرف عالي شأنه وعظيم جلاله وكماله.. ولكن كيف تكون معرفة الله ورؤية عظمته وجلاله؟. وكيف يقدِّر المخلوق خالقه حق قدره.

أقول: لا يصل الإنسان لهذه الحالة الرفيعة إلاَّ بعد شهوده عظمة الله، ورؤية كماله، فأنا لا أعرف قدرك إلاَّ إذا رأيتك، أو إذا رأيتك على رأس عملك أو في حال ممارستك لشؤونك، أو إذا رأيت صفاتك التي تشهد لي بعلوِّ قدرك، وتنطق بسموِّ مكانتك وعظيم شأنك.. وكذلك النفس لا توقن بعظمة خالقها إلاَّ إذا شهدت عظمة ذلك المالك العظيم في ملكوته، قائماً بالتربية والإمداد على خلقه، مفيضاً برّه وإحسانه على سائر مخلوقاته، غامراً الكون برأفته وواسع رحمته.

---

[1] سورة القدر.

فالإنسان بعد أن آمن بربه إيماناً غيبياً، وبعد أن أقرَّ بعظمة الخالق ورحمته إقراراً فكرياً، إذا هو استقام على أمر ربه، ومَرِن على طاعة الله، فلم يخالفه، ولم يعصه في أمر من أوامره، فلا بدَّ له إذا هو استمر على هذا الحال من الاستقامة والطاعة، وثابر على التقرُّب إلى الخالق بالإحسان إلى المخلوقات كافة؛ من ساعة يشهد فيها كمال الله سبحانه شهوداً نفسياً ولابد له من حالة تنغمر فيها نفسه بذلك النور الإلّهي، فترى عظمة خالقها وموجدها وتعاين حنانه تعالى عليها، وواسع عطفه ورحمته بها وبالمخلوقات جميعها، وهنالك تعرف قدر ربِّها وتوقن برحمته وعطفه عليها.

وتلك الليلة العظيمة التي يشهد فيها الإنسان هذه المشاهدة النفسية، ويرى هذه الرؤية الذوقية، وتحصل له بها تلك المعرفة الشهودية، تلك الليلة هي ليلة القدر أي: ليلة رؤية الإنسان عظمة الخالق وتقديره كمال الله.

أقول: وفي تلك الليلة، وإن شئت فقل في تلك اللحظة التي تحصل فيها هذه المشاهدات النفسية، ينطبع في قلب هذا المؤمن الحق، فتتنزل في قلبه حقائق الإيمان والقرآن كلها، فيغدو عارفاً بالمراد من الآيات وحكمتها ولذلك قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي: إن تنزيل ما انطوى عليه القرآن الكريم من الحقائق على قلبك إنما كان في ليلة القدر، أي ليلة مشاهدتك لعظمة ربك وتقديرك لخالقك.

والله تعالى لم يخاطب رسوله بهذا الخطاب إلاَّ ليبيِّن لنا أنه لا يحصل للإنسان العلم بحقائق القرآن ولا تكون المعرفة الصحيحة بما فيه من الآيات التي ملؤها السعادة والخير وقوامها الحق والإحسان إلاَّ في ليلة القدر.

فهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا أن العلم الصحيح لا يكون إلاَّ عن الله، ولا يُكتسب إلاَّ من الله.. فهذا الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ، وهذه الدلالة والعلم الذي بيَّنه للناس، والذي لا يستطيع البشر قاطبةً أفراداً وأمماً قروناً وأجيالاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعْضهم لبعضٍ ظهيراً.

كيف تسنَّى للرسول الكريم ﷺ وهو الذي لم يدرس من قبلُ في كتاب، ولم يتلقَّ العلم عن أحد من الناس، كيف تسنَّى له وحده أن يأتي بما جاء به من الهدى متحدّياً العصور والأجيال مبيِّناً عجزهم عن الإتيان بمثله!!.

إن هذه الآية لتدحض ما زعمته قريش، وما يزعمه أولو العقول القاصرة، أن القرآن إنما هو من وضع رسول الله ﷺ، فهي تبيّن لنا ذلك المصدر السامي الذي تلقى منه الرسول ﷺ هذا الهدى، وهذه الدلالة إلى طريق الحق طريق الإنسانية والسعادة الكاملة معلنة أن ذلك الهدى والكمال الذي جاء به رسول الله ﷺ إنما هو تنزيل من الله أنزله على قلب رسوله الكريم في ليلة القدر، ليلة تقديره كمال ربِّه وتعظيمه لخالقه كما أن هذه الآية الكريمة تنفي ما تقوَّله بعضهم من أن فهم القرآن يحتاج إلى ستة عشر علماً من العلوم

المختلفة والانكباب على دراسة تلك الكتب المطوَّلة.. فما الدراسات المفصَّلة بمجدية عن معْرفة الحقيقة شيئاً. ولا تحصَل للإنسان المعرفة الصحيحة إلا إذا تعرَّض لنفحات الله سبحانه، وفاز بتلك الليلة المباركة.

ولكن هل هذه الرؤية ميسورة لكل شخص؟. ومتى هي ليلة القدر؟.

أقول إن العدالة الإلَهية تقضي بأن لا يكون العطاء الإلَهي قاصراً على شخص دون شخص، فكلُّ مَنْ أعدَّ نفسه الإعداد المطلوب لهذه المشاهدة وإن شئت فقل أيُّما امرئ أطاع ربه حق الإطاعة فلم يتهاون في أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى، ولم يتلبَّس بثوب من أثواب المعصية، فلابدَّ له من الإكرام بهذه المشاهدة والفوز بتلك الليلة:

فالنفس العاصية المسيئة تُحجب عنها، إذ أنها تقف في صلاتها خجلى من ربها، معرضة عنه بوجهها، وهي والحالة هذه لا تستطيع أن تقبل على الله تعالى، وهي إن وقفت في صلاتها فوقوفها صورة لا حقيقة، وسيئاتها حجاب وسترٌ بينها وبين الله تعالى.

أما النفس المطيعة فمن لوازمها أنها إذا وقفت بين يدي ربها فإنها تقف متجهة مقبلة ذلك لأن إحسانها الذي تحمله بين يديها يجعلها فخورة بعملها واثقة مطمئنة من رضاء الله تعالى عنها.

فالاستقامة على أمر الله والتقرب بالعمل الصالح إلى الله، كلاهما الشرطان

الأساسيان وإن شئت فقل هما الجناحان اللذان يجعلان النفس تطير إلى تلك الآفاق العالية وعندها تشهد ما تشهد من كمال الله سبحانه وتتحلى بالفضيلة والمعرفة.

أما الموسم المناسب الذي تتهيأ فيه النفس لتلك الحالة من الرؤية، والفوز بتلك الليلة المباركة، فإنما هو شهر رمضان، وفي العشر الأواخر منه، تلتمسُ كما أخبر الصادق المصدَّق عليه أفضل الصلاة والسلام، ذلك لأنه يتوفَّر للصائم حينئذٍ ذانك الشرطان الأساسيان، فالجوع والعطش في رمضان عونٌ على القطيعة بين الإنسان والشيطان، والإنسان قد مَرِنَتْ نفسه طوال نهارها على هذه القطيعة الميمونة، تجده غير خجل من ربه إطلاقاً.

كما أن له من طاعته لله بصيامه سبباً عظيماً وحافزاً قوياً يحفزه على الإقبال على ربّه فإذا وقف عشاءً للصلاة بعد أن تناول يسيراً من الطعام والشراب، وقف وكله اتجاه وإقبال وطارت نفسه، تحلّق في ذلك الأفق العالي لا يعوقها عائق، ولا يقف بينها وبين خالقها حجاب وإنك لتجد الصائم بمجرد دخوله في الصلاة لا يلبث أن يرى نفسه مغموراً بفيض من نور الله، شاخصاً ببصيرته إلى الله، يعبده حق العبادة لأنه يراه ولا يزال يعيد الكرة يوماً فيوماً، وليلة بعد ليلة، حتى إذا أقبل العشر الأواخر من هذا الشهر وقد صلب عود النفس وأصبحت لذلك النور الإلهي أكثر تحملاً، ولمشاهدة ذلك

الكمال الإلَهي أهلاً، هنالك ينكشف لها عن كمال صاحب الجلال والجمال طرف من الستر، فتشهد ما يتناسب مع حالها من جماله وجلاله وعظيم صفاته، وترى الكون كله قائماً بإمداده وتسييره، سابحاً بفضله وإحسانه، مغموراً برحمته وحنانه.. وبشهود الإنسان ذلك الجلال الإلَهي والجمال وبرؤيته كمال ربه المتعال، وبتطلُّعه إلى الرحمة الشاملة. ولذلك العطف والحنان، يمتلئ حباً بذي الجلال والإكرام والعطف والإحسان.

والنفس بفطرتها مجبولة على حب الجمال والكمال، مشغوفة بتقدير صاحب الإحسان وبهذا الحب السامي لصاحب الكمال سبحانه، تصطبغ النفس بصبغة الكمال، وهذا النوع من الحبِّ هو وحده المهذّب لأخلاق الإنسان، والمحوِّل للنفس من حالٍ إلى حال.

فإذا قُضيت الصلاة، وعاد المصلي من ذلك السَّفر الميمون، عاد بخير زاد، عاد والفضيلة إلفهُ وأليفهُ، والكمال رفيقه وحليفه، والتقوى زاده، والإحسان إلى الخلق كافة همَّهُ ومراده.

تلك هي ليلة القدر التي يشهد فيها العبد عظمة ربه، وسامي صفاته، ويتنزَّل فيها القرآن على قلبه، تلك هي ليلة القدر التي زيَّن الله بها شهر رمضان، تلك هي الليلة التي يجب أن يفوز بها كل إنسان ليخرج من صف الحيوان وينتظم في سلك بني الإنسان، المتَّصف بالرحمة والإحسان والحنان

ومن مات ولم يشهد ليلة القدر فقد أضاع حياته وخسر هذا العمر. قال تعالى: ﴿. . .وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾[(١)].

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا عظيم شأن هذه الليلة فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: وما أعظم هذه الليلة، وما أكثر الخير الذي يناله الإنسان في ليلة القدر، وإنك أيها الإنسان لعاجز عن الإحاطة بما في ليلة القدر وذلك الفضل والخير الذي يناله المؤمن في هذه الليلة المباركة. ثم فصَّل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

و (**الألف شهر**): هي أربع وثمانون سنة تقريباً، فإذا أضفنا عليها سنَّي الطفولة والمراهقة كانت حصيلة ذلك مائة عام على التقريب. فليلة القدر، أي: أنَّ العلم والمعرفة والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في تلك الليلة، وإن شئت فقل في تلك اللحظة، خيرٌ مما يحصل عليه امرؤ عاش مائة عام قضى منها الألف شهر في الصيام والدراسة الجادَّة لاكتساب المعرفة.. فالغافل المعرض عن ذكر الله مهما امتد به العمر وطال حتى ولو أنه عاش مائة عام، فليس يجني من عمره إلاَّ الشقاء والخسارة، ولا يعود على الناس من عمله إلاَّ الإيذاء والإضرار. أما المؤمن المقبل، فعمره كله خير، وحياته كلها

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦٤).

إنسانية وإحسان وما ليلة القدر التي يفوز بها إلاَّ مدرسة يتعلَّم فيها الفضيلة والإنسانية والرحمة والإحسان، وشتَّان بين غافل معرض حياته كلها شر وإيذاء، وبين مؤمن مقبل ليسَ قصده من أعماله إلا خدمة الخلق كلّهم والفوز برضاء الرحمن.

وليلة القدر: والحالة هذه تلك الليلة التي يفوز بها المؤمن وهي خيرٌ من ألف شهر، أي خير من عمر الكافر كله، ومِنْ حياته التي ليس فيها خير، ولا ينتج عنها إلاَّ الإساءة والخسْران، وإذا كانت ليلة من ليالي القدر التي يُكرَم بها المقبل خيراً من حياة طولها مائة عام من العمر، فأي نسبة بين حياة المؤمن وحياة الكافر المعرض؟. أي نسبة بين علم الأول وعلم الثاني؟. وفي أي منزلة يكون ذلك المعرض بالنسبة لذلك المؤمن المقبل، عمره كله خير، وحياته كلها إنسانية، والذي تتوالى عليه ليالي القدر فمن ليلة إلى ليلة أعلى وأرفع، ومن معرفة إلى معرفة أرقى وأوسع، ومن منزلة إلى منزلة أسمى وأبدع، إنه ليس من نسبة بين مقبل وبين غافل معرض.. فمهما جدَّ الغافل وكدَّ فلا يبلغ ذرةً مما هو عليه المؤمن من علم ومعرفة وكمال وفضيلة، وما بين الأول والثاني إلاَّ كما بين السماء والأرض.

وهذا مثال نُقرِّب به الحقيقة قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ۞ وَلا الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ

يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[1].

أقول: وإذا كانت كل ليلة من ليالي المؤمن، لا بل كل لحظة خيراً من عمر الكافر المعرض كله، فما نقول إذا كانت كل لحظة من لحظات رسول الله ﷺ، ليلة من ليالي القدر. وماذا نقول وكيف نستطيع أن نتصوَّر ذلك الكمال وذلك العلم وتلك الأخلاق النبوية والتي تحلَّى بها قلب رسول الله، وأين نحن من رسول الله ﷺ، وأين البشر كلهم أجمعون منه ﷺ، ذلك البحر الواسع والبدر اللامع، والسراج المنير الساطع، ولكن لا يعرف قدر رسول الله ﷺ إلا من عَرَفَ الله، وفاز بليلة القدر، ولا يعرف الفضل إلا ذووه والله ذو الفضل العظيم.

ثم إنَّ الله تعالى أراد أن يبيّن لنا حال ذلك المؤمن بعد اصطباغه بتلك الصبغة من الكمال والفضيلة، وانطباع الحقِّ على صفحات نفسه الطيبة الطاهرة، فقال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾.

فالرسل والأنبياء جميعاً بإقبالهم العالي على ربهم وصلوا إلى درجة من الطهارة النفسية والمعرفة الشهودية التي لا يمكن معها أن تميل نفوسهم إلى شيء من الأشياء المنهيَّة، أو أن تنشأ في نفوسهم شهوة من الشهوات المحرَّمة، ذلك لأن النور الإلَهي ساطع دوماً في نفوسهم، والحقائق بادية ظاهرة

---

[1] سورة فاطر: الآية (١٩-٢٢).

بصورة مستمرة أمام أعينهم، والملائكة دائبة تتنزَّل بالروح عليهم بإذن ربهم، فهم في رؤية مستمرة متواصلة، وتلك هي العصمة.. وفي الحديث الشريف: «**نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[1].

أما المؤمنون وهم الذين لم يبلغوا ولا يمكن أن يبلغوا منازل الرسل والأنبياء، فهؤلاء قد تعْرض لهم شهوة من الشهوات، وقد تحدثهم نفسهم بميل إلى بعض الأمور المنهيّة، غير أن قلوبهم التي سطع فيها نور الحق من قبْل، تلك القلوب التي رأت الكمال فأحَبَّتهُ واصطبغت به في ليلة القدر تعوذ بربها مما نشأ فيها، وتلتجئ إليه طالبةً الخلاص مما أ لَمَّ بها وبعياذها بالله، والتجائها إلى الله، يسطع نور الله فيها فيتبدَّى لها الحق ويظهر، وتشهد بذلك النور الإلَهي، "وهو ما سماه الله تعالى بالروح"، ما تشتمل عليه تلك الشهوة، وذلك الميل من الأذى والشر.. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

وهذا ما بينته لنا الآية الكريمة من سورة القدر، فالروح كما رأينا هي ذلك النور الإلَهي الذي يتجلَّى به الله على قلب عبده العائذ به الملتجئ إليه. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: تظهر بها حقيقة كل شهوة، وينكشف بواسطتها ما

[1] أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٣٦/١ عن عطاء.

[1] سورة الأعراف: الآية (٢٠٠-٢٠١).

ينطوي عليه كل أمر من خير أم شر، وإنما تتنزَّل الملائكة بها ذلك لأنهم وسطاء يسري بهم النور الإلٓهي على مثل ما تسري القوة الكهربائية في الأسلاك، ويشعُّ نور الله في تلك النفوس المقبلة، فيكشف لها حقائق الأمور، ولا يكون هذا إلاَّ بإذن ربهم، فلا تحصل هذه المشاهدة والرؤية إلاَّ لمن أذن الله له بذلك، فكان ممن أقبل على ربه وتحلَّت نفسه بالكمال من الله وقدّر خالقه تقديراً يتناسب مع وجهته وإقباله. ونجمل القول فنقول:

قد تنازع المؤمن نفسه في شهوة من الشهوات، غير أن الصبغة، صبغة الكمال التي اصطبغت بها نفسه من قبل في ليلة القدر تجعله يرجع إلى ربه عائذاً طالباً منه أن يكشف له حقيقة تلك الشهوة وما فيها من الشر، وهنالك يتنزَّل الروح على قلبه، وتأتيه الملائكة بذلك النور الإلٓهي من ربه فتنكشف له الحقيقة التي يطلبها، ثم يرجع إلى القرآن فيجد الآية مصدِّقة لما شهد ورأى، وهنالك يطمئن قلبه، وتهوي إلى الحق نفسه، وفي الحديث الشريف: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[1].

وفي الحديث القدسي الشريف: «**لا يزال يتقرب العبد إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**

[1] قال الإمام النووي حديث حسن صحيح.

ولسانه الذي ينطق به»(٢).

وبلفظ آخر: «**فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق**»(٣).

ومن كان كلام الله دليله في كل أمر من أموره، فسيره كلُّه في أمان واطمئنان، ومن كان نور الله سراجه وضياءه فحياته كلها سعادة وسلام. وقد بيَّن تعالى ذلك بقوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

وقد عبر تعالى عن الموت بمطلع الفجر، ذلك لأن الموت ينكشف به الغطاء عن النفوس، فلا يحول بينها وبين رؤية الحق سترٌ ولا حجاب، فيرى الناس جميعاً الحقائق ظاهرة جليَّة بادية للعيان.. ويشهد الناس جميعاً الحق الذي جاءت به الرسل، فهذا المؤمن الذي تدارك أمره من قبل أن يأتيه الموت، وفاز بليلة القدر أشبه برجل يسير ليلاً في المغاور والقفار وبيده سراج ساطع منير، فهو أبداً على بصيرة وهدىً يسير في النور، والنور يكشف له كل شيء، فهو يسير في طمأنينة وسلام مدى العمر وطول الحياة، يتقلب دوماً في الخير، ولا يعمل إلا الخير، فإذا انتهت به مرحلة الحياة وطلع الفجر، جاءه الموت وهو بخير حال.. وهنالك البشرى والفرح والغبطة بما قدَّم من أعمال.

(٢) أخرجه البخاري، الاتحاف، للزبيدي (ج٣، ص١٦٥).

(٣) إحياء علوم الدين (ج٥، ص١٦٤).

فإن شئت العلم والمعرفة، وإذا كنت ممن يطلب الكمال والفضيلة، وإذا أردت أن ينطبع الحقُّ في قلبك، وتصطبغ نفسك بصبغة من الله ومَنْ أحسن من الله صبغة. وإن أحببت أن يتحلَّى قلبك بنور تمشي به في الظلمات، يكون لك به من الله برهان وفرقان، فما عليك إلاَّ أن تسعى لتفوز بليلة القدر، وهنالك تكسب حياتك الثمينة الغالية وتكسب هذا العمر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ولعلك تقول: إذا أنا صمت رمضان ولم تحصل لي التقوى التي شُرع الصوم من أجلها هل أنا بمعدود من الخاسرين؟. وهل يعني أني لست بمستفيد شيئاً من الصيام الذي صمته؟. وهل تذهب أعمالي وصلاتي كلها أدراج الرياح؟. وفي جوابي عن هذا السؤال محذراً أناساً ومطمئناً آخرين أقول:

أنت أعلم بما في نفسك فبحسب ما أنت فيه من حال يهبُكَ ويتفضل عليك ربك ومولاك.

فإذا كنت ممن ألقى حبله على غاربه واستهتر بأوامر ربه فأطلق البصر في المحرمات، وأرخى العنان لنفسه تسرح خلال العام في المنكرات ثم جاء يصوم رمضان فما هو بمستفيد من الصيام ولو أنه صام الدهر كله ويشير إلى ذلك

---

[1] سورة الإسراء: الآية (٧٢).

[2] سورة العنكبوت: الآية (٦).

رسول الله ﷺ بقوله الكريم: «**من لَمْ يدعْ قولَ الزور والعملَ به فليسَ لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[1].

يريد بذلك ﷺ أن الصوم الذي لا تسبقه استقامة في العمل وانقطاع عن المنكرات لا يثمر لصاحبه شيئاً ولا يصل به إلى التقوى تلك الغاية السامية التي شُرع الصيام من أجلها.

وأما إذا كنت قد أعددت نفسك خلال العام ونقلتها من مرتبة الاعتقاد إلى مرتبة الإيمان بلا إلّه إلا الله ودخلت في ذلك الحصن المنيع الذي يحفظك من الوقوع في المعاصي وأقبلت على الله تعالى في صلاتك الإقبال الذي يحلِّي نفسك بحلية الكمال ويطهِّرها مما بها من ذنوب وأدران، وجاء شهر الصيام فأبشر بكل خير وتوقَّع إحسان ربك إليك وأنه لابدَّ لك من الوصول إلى التقوى ولو طال بك المسير وأنت باستقامتك وصلاتك في كل يوم أقرب إلى الله من سابقه، وفي كل عام أرقى وأرفع من سالفه حتى إذا ما أضحت نفسك أهلاً لتلك المنحة الكبرى وذلك العطاء الإلَهي العظيم كساها الله تعالى بحلية التقوى وتفضَّل عليها بها.

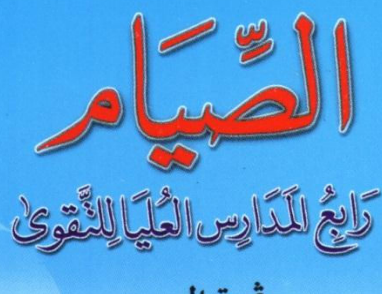
[1] الجامع الصغير (حم خ د ت هـ).

فكيف يجب أن نصوم لنفوز بليلة القدر؟.

إذا صام المؤمن حقيقة فلم يؤذِ أحداً ولم يكسب إثماً ولم يعص الله في نهاره أبداً.. إذا صام المؤمن وفعل الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً قاد نفسه إلى ربه، ووجَّهها إلى خالقه وطلب معرفة الله طلباً حثيثاً. إذا صام المؤمن رمضان وتناول من الطعام عند الإفطار قدراً يسيراً ولم يُحمل معدته حملاً ثقيلاً إذا فعل الصائم هذا، وأتى بما ذكرنا، ووقف يناجي ربّه، يصلي صلاة التراويح ويقف خفيفاً نشيطاً، لا يشكو ألماً ولا يطلب شيئاً وكان إلى ربه راغباً. هنالك وفي ليلة من ليالي رمضان لابدّ من ساعة يكرمه الله بما يكرم عباده المحسنين.

لا بدَّ لهذه النفس الطاهرة الزكية من ليلة تُزجُّ فيها بالأنوار الإلٰهية وتُغمس في بحور من المعارف الربانية فيصبح لها فرقان ونور ختامه بصيرة تشهد بها حقائق الأمور، وتتَّقي بها الوقوع في المآثم والشرور فترى الخير وتشهده في كل أمرٍ من الأمور الإلٰهية ويبدو لها الشر وتعاينه في كل مخالفة ومعصية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ..﴾[1].

[1] سورة الحديد: الآية (٢٨).



ثمرة الصوم

« كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصيام فإنه لي و أنا أجزي به »

حديث قدسي

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ ﴾ : لمَّا صام ﷺ صار له تعظيم لحضرة الله تعالى وتقدير فأُنـزلت معاني الكتاب المقدَّس القرآن في نفسه الطاهرة الشريفة .

إن صمت فيه حقّاً استنرتَ و شاهدت الحقَّ فميَّزتَ الخير من الشر ، عندها تسمع كلام الخالق العظيم فتهتدي .

﴿ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الفُرْقَانِ . ﴾ : بقربك من الله تعالى يتبيَّن لك الخير من الشر . و هل تحسب هذا التمييز بين الخير والشر هيِّناً و هو ما عجزت عن بلوغه حكماء الإغريق و الرومان و العرب قاطبة في فلسفاتهم الكبرى ! . عندها تغدو و كلك خير لنفسك و للخلْق كافَّة .

﴿ وَلِتُكَبِّروا اللهَ عَلَى ما هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ : فمن صام من المؤمنين حقّاً « وكان قبل الإيمان أعمى القلب » تفتَّحت بصيرته و أضحى من أهل القلوب « و ذرَّة من أعمال أهل القلوب تعادل عمل الثقلين » .

أجل لقد صام و نال ليلة القدْر .. كان مريض القلب و ربَّما الجسم فصحَّت نفسه ثم يرفل جسمه بثياب العافية من كلِّ داء ؛ هذا يكبِّر الله على ماهداه و ذلك التكبير بصلاة العيد لا تكبيراً لفظيَّاً صوريّاً فقط ، بل قلبياً شهوديَّاً حمداً لله على ما أسداه من عميم الفضل و الإكرام . حقّاً : لقد غدت نفسه أهلاً لأن تشكر فتهدي البشرية إلى ما تصبو إليه من السعادة و الغبطة الأبدية ، إلى بارئها مبدع كل حسن و جمال وجلال .

تلك حقيقة الصيام والذي به ينال المؤمن شهادة التقوى ، أي الاستنارة الدائمية بنور الله وتلك لعمر الحق أقصى غاية المنى .

الناشر

